



تاريخ وعمارة مدرسة محمد باي المرادي بمدينة قفصة من خلال المصادر الأرشيفية

توفيق لسود*

الملخص

يتناول المقال "المدرسة المرادية" بمدينة قفصة والتي أمر ببنائها محمد باي المرادي في نهاية القرن السابع عشر. وتعتبر هذه المدرسة أولى المعالم الدينية والتعليمية التي شيّدها السلطة العثمانية بقفصة وبجهة الجريد. تميّز هذا المعلم بأهمّية الأملاك المحبّسة عليه والتي كانت منحصرة في الملكيات الفلاحية وكافية لصيانة وترميم المبنى ولدفع مرتبات الموظفين والطلبة.

مكنتنا رسوم الأحباس ووثائق الأرشيف من معرفة عدّة جوانب وتفاصيل تتعلق بتسيير المدرسة وبتطوّرها التاريخي والمعماري بالرغم من اندثارها حالياً.

وتفسّر العناية الكبيرة التي أولاها المؤسس لمشروعه التعميري بالأهمّية العسكرية والاقتصادية والجبائية لمدينة قفصة وبالحرص على تأسيس تحالفات مع أعيان المدينة بهدف تدعيم نفوذ السلطة المركزية ومزيد السيطرة واحتواء المناطق البعيدة والظرية للإيالة التونسية.

الكلمات المفتاحية: حبس، عمارة، فترة حديثة، قفصة، المدرسة المرادية.

Résumé

L'objet de cette recherche est la *madrassa al-Mourâdiya* de Gafsa, construite par Muhammad Bey al-Mourâdî à la fin du XVII^e siècle. Cette *madrassa* peut être considérée comme l'un des premiers établissements religieux et éducatifs construit par l'autorité ottomane à Gafsa et dans la région du *Jarîd*. Elle se distinguait par l'importance des biens immobiliers *habous* qui lui étaient attribués. La rente de ces biens fonciers et immobiliers servait à l'entretien et à la restauration de l'édifice. Elle a également été utilisée pour payer les rétributions du personnel et des étudiants.

Les actes notariés du *habous* et les documents d'archives nous ont permis de connaître plusieurs aspects et détails concernant la gestion de l'école et son développement historique et architectural malgré sa disparition.

Le grand soin apporté par le fondateur à son projet urbanistique s'explique d'un côté par l'importance militaire, économique et fiscale de la ville de Gafsa et de l'autre par son souci d'établir des alliances avec les notables de la ville afin de renforcer l'influence du pouvoir central, plus de contrôle et de confinement des régions éloignées et périphériques de la régence de Tunis.

Mots clés : architecture, *habous*, époque moderne, Gafsa, la *madrassa al-Mourâdiya*.

* محافظ مستشار التراث بالمعهد الوطني للتراث بتونس، مخبر الآثار والعمارة المغاربية.



Abstract

The present study focuses on the *madrassa al-Mourâdiya* in Gafsa whose construction was commanded by Muhammad Bey al-Mourâdî by the end of the seventeenth century AD. This *madrassa* is considered to be the first chief religious and educational monument built by Ottoman authority in Gafsa and the *Jarîd* region. Its obvious uniqueness and oddity was attributed to the importance of the *habous* real estate (endowment). Although these assets were confined to agricultural property, they were sufficient to maintain and restore the building to keep shining forever. In addition to that, they were utilized to pay off the salaries of employees and students.

The *habous* notarial fees and archive documents have enabled us to learn, in depth, about a number of key aspects and details related to the management of the school and its historical and architectural development over time, despite today's disappearance of this historical landmark. Equally important to mention here that the great care devoted by the founder in his town-planning construction project can be explained, on the one hand, by the military, economic and fiscal paramount importance of Gafsa city and, on the other hand, by his concern to establish alliances with the town's notables with the aim of further strengthening the influence of the central power, gaining greater control over and containing the remote and peripheral regions of the Tunis regency.

Keywords: architecture, *habous*, modern period, Gafsa, the *madrassa* al-Mourâdiya.

المراجع لذكر المقال

توفيق لسود، «تاريخ وعمارة مدرسة محمد باي المرادي بمدينة قفصة من خلال المصادر الأرشيفية»، السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية [نسخة الكترونية]، عدد 18، سنة 2024.

الرابط : <http://www.al-sabil.tn/?p=3286>

المقدمة

سنسعى من خلال هذا العمل إلى دراسة مدرسة محمّد باي المرادي بمدينة قفصة وهي من بين المعالم الدينية والتعليمية التي لم تنل حظها من الدراسات التاريخية والأثرية سوى بعض الإشارات العامة والمختصرة وهي اليوم غير معروفة لدى أهالي المدينة بحكم اندثارها في النصف الثاني من القرن العشرين.

تكتسي دراسة المدرسة المذكورة أهمية على اعتبار تاريخ تأسيسها الذي يعود إلى القرن السابع عشر وهي حقبة تاريخية إنتقالية أساسية في تاريخ البلاد التونسية مازالت غامضة وتستدعي مزيدا من الاهتمام من ناحية ولفهم السياسة العمرانية والتعليمية التي توخاها البايات المراديون والحسينيون ولرصد الملامح العمرانية المتصلة بعملية التوسع المدني من ناحية أخرى. سعى الأتراك في البداية إلى بسط نفوذهم على دواخل البلاد وتحصين المواقع الدفاعية ومنها قفصة قفصة التي كانت مقرا لإقامة الجيش الإنكشاري ثم اهتموا في مرحلة لاحقة بالعمران والتشييد. سنركّز البحث على فترة البايات المراديين وتحديدًا محمّد باي، الذي عرف ببناء عدد هام من المنشآت في المدن البعيدة عن تونس مركز الحكم كصفاقس وسوسة وجربة وقابس وباجة والكاف وتوزر وذلك لتلبية مختلف حاجياتها الروحية والعلمية والقضائية. وتعدّ مدينة قفصة من المدن الداخلية ذات الإشعاع نظرا لأهميتها الاستراتيجية كقاعدة حصينة ومفترق طرق، ولدورها في السيطرة على مدن ووحدات الجنوب الغربي، فضلا عن وقوعها على الحدود الجزائرية، واحتوائها على قرى واحة وأرياف واعتمادها مقرا لإقامة بايات المحلة أثناء خروجهم لاستخلاص الضرائب شتاء¹. شهدت المدينة تحولات عميقة خلال الفترة العثمانية وطّدت علاقتها بالسلطة المركزية بعد أن تخلّت عن نزعتها الاستقلالية خلال فترات من العصر الوسيط. ومثّلت خلال الفترة الحديثة مركزا حضريا وواحيا وإداريا في خدمة السلطة المركزية مما شجّع على استيطان مجموعات ذات أصول "تركية" بالمدينة.

سنحاول في هذه الورقة دراسة المعلم ككل من خلال التعريف بهذه المؤسسة الدينية التعليمية بدءا بتاريخ وبظروف تأسيسها والكشف عن مخططها وعمارته وتبيان الشعائر الدينية ووجوه استعمال الوقف الخاص بها وإبراز مكانتها ضمن المشهد العام للمؤسسات التعليمية بالمدينة خلال الفترة الحديثة. اعتمدنا في انجاز هذا العمل بالأساس على رسم حبس مدرسة قفصة² الذي تضمّ كذلك معلومات متنوّعة حول مدينة قفصة وواحيتها في نهاية القرن السابع عشر

¹ بعد السيطرة العثمانية أصبح توجيه المحلة إلى دواخل البلاد دوريا عدا بعض الحملات المؤقتة. وتنطلق في بدايات شهر جانفي محلة الشتاء نحو الوسط والجنوب مرورا بقاعدة القيروان المركزية بهدف جمع الجباية بعد جني الزيتون والنخيل. وتمثّل المحلة حضورا ماديا ملموسا للمخزن يهدف إلى فرض الطاعة على القبائل والقرى البعيدة والقضاء على حركات التمرد والعصيان وإلى التواصل مع المجموعات الداخلية لتدعيم روابط الولاء للسلطة المركزية من خلال الاتفاقيات وتجديد عقود الإخلاء.

² الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 1 مكرر (دفتر أوقاف المراديين)، حبس مدرسة قفصة مؤرخ بأواخر جمادى الأخرى عام 1104 هـ / 7 مارس 1693 م، ص. 99-104. نشير هنا أنّ الأستاذ أحمد السعداوي قام بتحقيق نصّ الحبس هذا. انظر: أحمد السعداوي، 2011، ص. 361-367.

كما اعتمدنا على نسخة ثانية متأخرة تاريخيا (1107 هـ / 1696 م) لرسم الحبس تحمل عنوان " أحباس مدرسة قفصة"، الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 3992، نسخ لحجج تحبيس أملاك على المساجد والمدارس بتونس وخارجها، ص. 180-184.



وعلى عدد من وثائق الأرشيف الوطني التونسي³ وأرشيف أملاك الدولة والشؤون العقارية⁴ التي ساعدتنا على التأريخ للمدرسة المرادية ومعرفة تفاصيل متنوعة تتعلق بإدارتها وعمارتها وأوقافها.

1. الإطار التاريخي لتأسيس المدرسة

لدراسة المدرسة وجب أولاً تقديم موجز للفترة التاريخية التي أنشأت فيها وذكر أهم الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المحيطة بها. شهدت البلاد التونسية خلال القرن السادس عشر ظروفاً غير مواتية للاستقرار السياسي نتيجة ضعف وتفكك الدولة الحفصية من جهة والصراع الإسباني العثماني من جهة أخرى. واستمر هذا الوضع المضطرب خلال القرن السابع عشر مما أدى إلى تهميش وتراجع الحياة الثقافية. وتشير في هذا الصدد جلّ المصادر والمراجع إلى حالة الخراب التي آلت إليها مدارس مدينة تونس وإلى تراجع دور وإشعاع المعالم الدينية والتعليمية⁵ سيما بمدينة قفصة وهي كغيرها من المدن شهدت هذا التراجع الثقافي. تحسنت الأوضاع السياسية في نهاية القرن السادس عشر/ بداية القرن السابع عشر مع عهدي عثمان داي وصهره يوسف داي اللذين وجّها عنايتهما للعمارة وقاما بدور فعّال في دفع حركة البناء والتعمير. نتج عن استقرار الأتراك بتونس انتشار المذهب الحنفي على حساب المذهب المالكي السائد بالبلاد. وكان اهتمامهم في مرحلة أولى بترميم وبناء المدارس القديمة وإعادة نشاطها التعليمي⁶.

تدعمت حركة تأسيس المدارس وغيرها من المعالم الدينية والمدنية مع وصول البايات المراديين للحكم حيث شهدت البلاد عموماً خلال فترة حكمهم انتعاشة ثقافية واقتصادية ملحوظة بالرغم من تواصل المحن والكوارث الطبيعية التي شهدها القرن السابع عشر. وكانت قفصة من بين المجالات التي دار فيها الصراع الشديد على حكم الإيالة التونسية (1675-1686) بين علي باي وأخيه محمد الذي إنظم أهالي المدينة إلى صفه بعد أن كانت تحت سيطرة الأول⁷. أسست مدرسة الباي بقفصة بعد سنتين من انتهاء هذا الصراع على الحكم داخل البيت المرادي والذي انتهى بفوز محمد باي وانفراده بالحكم من 1686 إلى 1694 وولي إبراهيم الشريف قائد صباحية الوجج بقفصة المدينة⁸. بادر محمد باي مع استقرار الأوضاع بالإيالة إلى إعادة

³ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية والسلسلة "د" المتضمنة لمعلومات متنوعة حول معالم المدينة بمختلف أصنافها ولرسائل جمعية الأوقاف.

⁴ وهي تضم عقود رسوم الأوقاف والإنزالات والمعاضد المتعلقة بالمعالم الدينية (مساجد وزوايا) والخيرية الموجودة بمدينة قفصة.

⁵ نذكر منها: حسين خوجة، 1975، ص. 38 ومحمد الباجي بن مامي، 2006، ص. 118-119.

⁶ وهي في الحقيقة خطة اتبعتها الحفصيون الذين كونوا أول مؤسسة لمدارس العلم في المغرب وذلك اقتداء بالمدارس التي نشأت بالمشرق. وكان الهدف من تأسيس المدارس بالنسبة للحفصيين هو نشر الدعوة الموحديّة وتكوين موظفين أكفاء قادرين على القيام بأعباء الحكم، وشهد القرن الثامن عشر أوج هذا التوجه من خلال تأسيس العدد الأكبر من المدارس ونذكر منها المدرسة الشماعية، المدرسة التوفيقية، المدرسة العصفورية، المدرسة المغربية والمدرسة المرجانية. لمزيد المعلومات انظر:

Robert Brunschvig, 1931, p. 273.

⁷ أحمد بن أبي الضياف، 1989، ج. 2، ص. 80. ولمزيد المعلومات انظر:

Louis Poinssot, *Cahiers de Tunisie*, 1971, n° 75-76, p. 218.

⁸ أحمد بن أبي الضياف، 1989، ج. 2، ص. 80.



تنظيم شؤون الحكم وحسن تسيير النظام والأمن من خلال تأديب وإخضاع القبائل المتمردة وألزمها بدفع الضرائب. وتمكن من خلال سياسته الردعية-الجبائية من جمع ثروات هامة كانت دافعا لبعث مشاريع عمرانية كبرى شملت خاصة مدينة تونس وبناء معالم دينية وتعليمية من الجوامع والمدارس بالمدن الهامة بدواخل البلاد (بنزرت، باجة، الكاف، القيروان، قفصة، توزر وقابس) وخصتها بأوقاف هامة⁹.

تعتبر المدرسة المرادية أولى المعالم الدينية والتعليمية الرسمية بمدينة قفصة وبالجنوب الغربي للبلاد التونسية خلال الفترة المرادية (1631-1702)¹⁰. وتستمد أهميتها من خلال اشغالها الذي تجاوز حدود المدينة ليشمل المنطقة ككل. لعبت المدرسة دورا مهما من خلال اضطلاعها بنشر العلم وتنشيط الحياة الثقافية المحلية وتغطية حاجيات الدولة من الإطارات الشرعية والعلمية (مدرسين، خطباء ومفتين وقضاة وكتّاب). وتجلّى ذلك بصورة واضحة خلال العهد الحسيني الأول من خلال تعزيز النفوذ الاجتماعي والاقتصادي للإطارات الدينية والقضائية والإدارية ودعم الأرسطراطية التركية الحاكمة. وهي أدوار تشكلت بفضل ما اضطلع به كل من الجامع الكبير والجامع الحنفي¹¹ ومدرسة الباي، معالم كانت لها أدوار علمية إيجابية في انتداب عدد من المشايخ الأكفاء في التدريس وترتيب دروس منتظمة وتخصيصها بأوقاف معتبرة للصيانة ودفع مرتبات القائمين بشؤونها.

توفرت بالمدرسة المذكورة كلّ الشروط الضرورية للقيام بدورها الديني والتعليمي من خلال تعيين موظفين والتكفل بأجرتهم الشهرية وإيجاد بيوت سكن للطلبة ومسجد لإقامة الصلاة وتخصيص قاعة للتدريس. كما تم توفير التكوين اللازم للطلبة ليتمكنهم من الالتحاق بالجامع الكبير. ونتبين من خلال رسم حبس المدرسة أنها أنشئت كغيرها في المدن البعيدة عن تونس لتعليم القرآن والفقه ومبادئ علوم اللغة العربية بهدف تكوين طلبة سيتصدرون بدورهم لاحقا التعليم في المدارس والجوامع وأداء المهام القضائية.

2. التعريف بالمدرسة المرادية بقفصة

1.2. تاريخ التأسيس

عرف محمد باي المرادي¹² (1685-1696) ابن مراد الثاني وهو رابع وآخر وأهمّ البايات في الدولة المرادية مثله مثل جدّه حمودة باشا (1631-1666) بالمشاريع المعمارية الكبرى حيث قام ببناء جملة من المدارس بالمدن البعيدة عن العاصمة بالقيروان، باجة، الكاف، قابس، توزر وجربة)¹³. أسس هذا الأخير مدرسة قفصة في حدود سنة 1100 / 1688¹⁴ وذلك قبيل

⁹ Ahmed Saadaoui, 2001, p. 106.

أحمد السعداوي، 2011، ص. 37.

لمزيد المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: الوزير السراج، 1985، ج. 2، ص. 559-560.

¹⁰ Taoufik Lassoued, 2021, p. 518- 519.

¹¹ خصّص هذا الجامع لأتباع المذهب المالكي قبيل التواجد العثماني وعرف مع استقرار الطائفة الحنفية بـ "نوبة الترك"، المنتصر ابن أبي لحية، 1998، ص. 184. وهو بذلك جعل لإقامة الصلوات على قواعد مذهب أبي حنيفة ولنشر المذهب الحنفي.

¹² حسين خوجة، 1975، ص. 142.

¹³ ولمزيد المعلومات انظر: أحمد السعداوي، 2011، ص. 12-38.

¹⁴ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.



سنتين من تاريخ بناء مدرسة توزر وسنة من تأسيس مدرسة باجة وذلك لتدريس العلوم ولإيواء الطلبة القادمين من القرى والقبائل المجاورة.

عرفت المدرسة في الدفاتر والوثائق الأرشيفية تحت تسميات أخرى: "مدرسة قفصة"¹⁵، "المدرسة المرادية"¹⁶، "مدرسة الباي" و"المدرسة المحمدية"¹⁷ نسبة إلى مؤسسها محمد باي المرادي. ومثل المعلم على المستوى الوظيفي والتخطيطي توأصلا لمدارس العهد الحفصي ولا يستبعد أن يكون المؤسس قد استغل أنقاض المدرسة المعروفة بـ"مدرسة النوّاري" وأمر بترميمها وتوسيعها¹⁸.

وحظي المعلم في بداية القرن الثامن عشر باهتمام خاص من قبل حسين بن علي التركي (1705-1740) مؤسس الدولة الحسينية والعناية بأوقافها وتشجيع طلبتها وسمّيت المدرسة أثناء هذه المرحلة الثانية بـ"المدرسة الحسينية"¹⁹. وعرف الباي كفاعل سياسي بإحسانه ودعمه للزوايا التابعة للطريقة القادرية نسبة إلى الصوفي العراقي سيدي عبد القادر الجيلاني²⁰ ومنها مدرسة قفصة والتي خصّصت خلال هذه الحقبة لإقامة طقوس وأنشطة الطريقة القادرية²¹. وفي نهاية القرن التاسع عشر أهملت المدرسة وحلّ بها الخراب ممّا استوجب غلقها²². وكان يتطلب إصلاحها حسب أمين البناء 2000 ريال سنة 1874²³. واستعملت المدرسة خلال الفترة الاستعمارية كمكان للسخرة ومقرًا لنزول الجيش الفرنسي²⁴. ضمّت جمعية الأوقاف المدرسة لإدارة العلوم والمعارف ثم أعادتها بعد تجديدها جزئياً سنة 1906 إلى سالف نشاطها التعليمي²⁵ وجعلت لإقامة تلامذة الفرع الزيتوني²⁶. ولم تسلم المدرسة من خطر التداعي وأصبحت منذ 1925 غير صالحة للسكنى بعد سقوط جدران الجهة الغربية منها²⁷. ظلّت المدرسة قائمة إلى منتصف القرن العشرين ثمّ تضررت تدريجياً منذ سنة 1957²⁸ ولم يتبق منها اليوم سوى الجدار الجنوبي للمسجد ومحرابه وقد أخذت مكانها بنايات حديثة من الجهة الشمالية وممرّ عمومي وفضاء صغير لحديقة عمومية من الجهة الجنوبية.

15 الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 1 مكرر (دفتر أوقاف المراديين) والدفتر عدد 3992.

16 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85 و90. الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 21، ملف 237، وثيقة 56.

17 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.

18 المنتصر ابن أبي لحية، 1998، ص. 499؛ مصطفى التليلي، 2009، ص. 295.

19 حسين خوجة، 1975، ص. 142. وأولى حسين باي اهتمامه خاصة بالعاصمة تونس فبالإضافة إلى أعمال التجديد والترميم أنشأ عديد المعالم الدينية والتعليمية والمائية والاقتصادية الجديدة وأعاد إعمار مدينة القيروان في بداية حكمه.

20 كما أنشأ الباي حسين بن علي مدارس أخرى ونسبها إلى الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني منها: المدرسة الحسينية بمدينة سوسة (قبيل 1724) وهي في الأصل تجديد لزاوية الشيخ الزقاق بالمكان والمدرسة الحسنية بمدينة نفطة (قبيل 1716) ووقف عليها أوقافا ورباعا ورتب لمدرستها وطلبها وخدمتها مراتب، انظر: حسين خوجة، 1972، ص. 133-141. أحمد السعداوي، 2015، ص. 85 و ص. 405-412.

21 محمد الصغير ابن يوسف، 1998، مجلد 1، ص. 22.

22 الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.

23 أرشيف أملاك الدولة، صندوق 379، إصلاح أوقاف قفصة.

24 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 16، ملف 32، وثيقة 18.

25 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 108.

26 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 1.

27 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 43، 44، 48 و56.

28 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 64، ملف 1، وثيقة 4.

1.2. الموقع

تقع المدرسة المرادية بمدينة قفصة العتيقة وتحديدا بالجهة الغربية لقسم "قبلي قفصة" وهو النواة الأقدم للمدينة. ينتمي إلى هذا القسم أبرز أعيان المدينة، الحكام المحليين الفعليين لها والذين كانت تربطهم بالسلطة المركزية العثمانية علاقات تحالف توصلت على امتداد منتصف القرن التاسع عشر. شيدت المدرسة المذكورة في موقع استراتيجي²⁹ يفتح على نهج عام ويتوسط أهم معالم المدينة المسورة: القصبية والترميل³⁰ من الغرب، الجامع الكبير من الجنوب ودار الباي والأحواض الرومانية من الشرق. اختار المؤسس محمد باي المرادي أن تكون مجاورة للجامع الحنفي الموجود داخل القصبية وتحديدا بموقع سيادة وبفضاء مثل تاريخيا قطبا معماريا وروحيا لعدد هام من المعالم الصحيّة والمائية والدينية والتي لازالت إلى اليوم تحتل ذاكرة المجموعة وتنوّعها بالنواة الأقدم من المدينة. لم يكن اختيار موقع المدرسة عفويا، بل برّرتة عدّة ضرورات ومقاصد أهمّها الاعتبارات الأمنية والجغرافية من خلال القرب من القصبية ودار الباي ومن ينابيع المياه³¹ والحمامات. وكانت تعدّ كمواقع صحيّة تجمع متساكني المدينة وتوثق العلاقة بين مختلف نقاطها وما حولها من أرباض. بعد تجديد الجامع الحنفي داخل القصبية³² وتأسيس المدرسة المرادية، تدعت مكانة هذا الموقع من حيث جاذبيته للسكان الجدد من الجالية التركية ثم من الطائفة الكوروغلية التي كوّنت حيا خاصا على أساس مذهبي سمّي حومة "الحنفية". ولم يغيب عن فكر المؤسس هاجس الإشعاع ومزيد استقطاب الأتباع وهي في الحقيقة رغبة من الأقلية الحنفية في تعزيز حضور المذهب الحنفي الرسمي للدولة.

وبعد اكتمال النسيج الحضري للمدينة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أصبح المحيط الخارجي للمدرسة أقلّ انفتاحا حيث أحيطت بالدور السكنية وبالزاوية القادرية من جهة الشمال. وقد سهّل قرب المدرسة من الجامع الكبير مهمة تنقل الطلبة لمتابعة حلقات الدروس في رحابه³³.

²⁹ وهو نفس الشيء بالنسبة للمدرسة المرادية بمدينة توزر والتي شيدت بحي أولاد الهادف، الحي الذي يقطنه أثرياء المدينة والعناصر المتنفذة. وهو اختيار يندرج في سياسة التحالف التي انتهجتها السلطة المركزية مع الأعيان المحليين. ذاكر سيلة، 2016، ص. 3.

³⁰ وهو معلم قديم يرجع إلى الفترة الرومانية، تسميته مشتقة من المصطلح اللاتيني «Thermae» وهي حمامات عمومية أعيد استعمالها خلال الفترة الإسلامية. ويتكوّن المعلم من ثلاثة وحدات: حمام الرجال، حمام النساء وحمام اليهود.

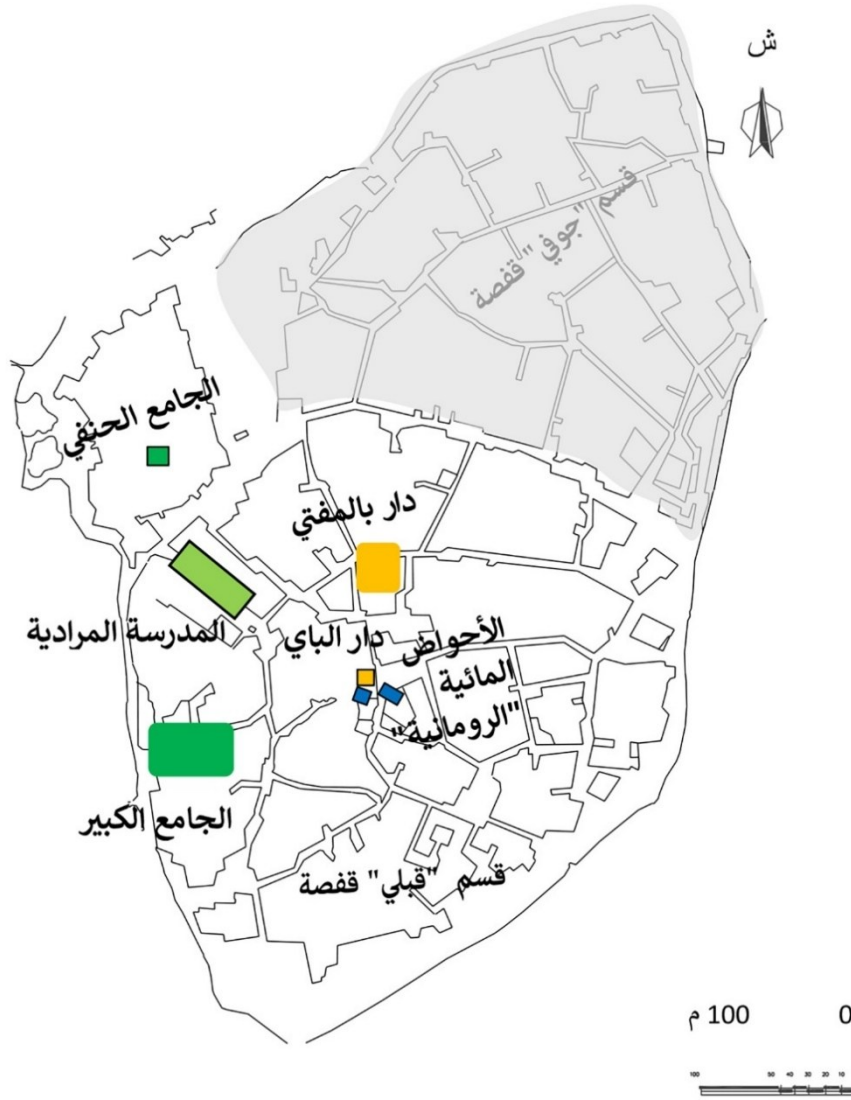
³¹ ونذكر منها بالخصوص عيون "بستان بالأمين" وعين "الحرير" الواقعة شمال المدرسة المرادية والتي كانت تستغلّ كمباضة لجامع المدرسة المذكورة وللزاوية القادرية بعد تأسيسها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

³² قام بأعمال التجديد الداوي مصطفى لاز (1665-1653) في أول حجة 1074 / 25 جوان 1664. هذا الأخير عرف بعدة إنجازات معمارية (ترميم وتجديد أسوار مدينة سوسة وبناء الجامع الكبير وبرجين بمدينة غار الملح) وهي أعمال تندرج في إطار السيطرة ومزيد إحكام المدن.

Taoufik Lassoued, 2021, p. 265-266.

³³ إلى حدود الثلاثينات من القرن العشرين كان طلبة المدرسة يتابعون الدروس التي يقدها 6 مدرسين و3 متطوعين في الجامع الكبير بقفصة ونعتقد أن المدرسة أصبحت منذ ذلك التاريخ مركزا للسكني فقط، الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 47، ملف 15، وثيقة 9.

هذا وقد لعبت المعالم الدينية الأخرى بالمدينة ووضاحيها كالزوايا والجمامع والمساجد دورا هاما في تحفيظ الصبية القرآن وفي نشر العلوم الشرعية كالفقه والتوحيد وغيرها ومثلت بالأساس روافدا للجامع الكبير من خلال إعداد الطلبة للدراسة به باعتباره فرعا من فروع الجامعة الزيتونية.



صورة 1. موقع المدرسة.
المصدر: إنجاز صاحب المقال.

3.2. شيوخ المدرسة

اقتصرت معلوماتنا عن الشيوخ الذين درّسوا بالمدرسة المرادية بقفصة استنادا على ما ورد في بعض المصادر ووثائق الأرشيف. يجمع أغلب المدرسين بين وظيفة التدريس وظائف أخرى كالإمامة والإفتاء والقضاء وهي وظائف في أغلب الأحيان وراثية ويتقاضى أصحابها رواتب ومكافآت مادية من قبل السلطة المركزية.

سعت السلطة الحاكمة خلال العهدين المرادي والحسيني لمزيد توطيد شرعيتها من خلال بناء وترميم بعض المعالم الدينية التعليمية والعسكرية والمائية والاقتصادية. ولإظهار اهتمامهم بمهن التدريس والتعليم، اتخذ البايات إجراءات إضافية للتشجيع على العلم وتعظيم الفقهاء بهدف كسب ثقة هذه الفئة العلمية الفاعلة في المجتمع المحلي من ناحية واستمالة قلوب المحليين وضمان ولائهم من ناحية أخرى. استفاد مدرسو المراكز الواحية ومنها قفصة من دعم البايات الحسينيين بدءا بحسين بن علي مؤسس الدولة الذي اهتمّ بالجانب التعليمي بجامع الزيتونة وكان



له الفضل في إقامة عدّة مدارس وتخصيصه مرتبات قارة متأتية من مداخيل الأحباس ومن الجزية الموظفة على الأقلية اليهودية³⁴. تضمنت الدفاتر الجبائية للقرن الثامن عشر على امتيازات مدرسي مدرسة الباي من الدعم المالي في شكل إعفاءات جبائية "ترك" وفي شكل رواتب نقدية وعينية. تمتّع الشيخ المدرّس بإعفاءات تقدّر بـ 50 ديناراً وينضاف راتب المدرّس والمشرف على المدرسة المقدّر بـ 67.75 دينار على أساس 6 نصري عن كل يوم كما خصّص 6 أمطار قفصي من الزيت للشيخ المدرّس بالمدرسة³⁵. وهي إجراءات تواصلت مع علي باشا حيث حافظ مدرسو جهة قفصة على امتيازاتهم في عهده. أسند علي باي للفقهاء المدرسيين إضافة إلى امتيازاتهم القديمة، زيادات من مال الجزية وفاضل الأوقاف³⁶ غير أنّه اتخذ إجراءات انتقامية وسلّط خطايا ثقيلة لضرب نفوذ عائلة عابدين. وفي القرن التاسع عشر أدخل أحمد باي إصلاحات بهدف مزيد تنظيم المؤسسة التعليمية في نطاق تدعيم السلطة المركزية³⁷ كسبت من خلالها فئة مدرسي المدن الداخلية أجورا إضافية علاوة على ما يتقاضونه من مداخيل الأحباس قصد تحفيزهم على حسن تسيير أداء مهامهم. وواصل محمّد الصادق باي تشجيعه المادي والمعنوي للمدرسين من خلال اتخاذه قرارات لتنظيم التعليم متأثرا في ذلك بأفكار الوزير خير الدين الإصلاحية. وأصدر في هذا الإطار سنة 1870 أمرا بتحسين مرتبات المدرسين وإقرار مبدأ الاختصاص³⁸. واستفاد في عهده الطلبة من إعفاءات من دفع ضريبة المجبي.

تولّى التدريس بمدرسة الباي بقفصة شيوخ لهم قيمة علمية حيث تلقوا في البداية تكوينا محلياً ثم واصلوا تعليمهم بمراكز ذات إشعاع مثل تونس والقيروان وجربة ونفطة لاستكمال التكوين المطلوب الذي يسمح لهم بممارسة مهنة التدريس. توفر هذا التكوين الإضافي بالأساس لأبناء العائلات الميسورة وهو ما يفسّر اقتصار خطط التدريس والخطط القضائية والدينية على هاته الأوساط الاجتماعية. ونلاحظ في هذا الصدد بروز أعيان العائلات العلمية "دار علم" أهمّها الأجرينين بفرعها عرفة وصديق واحتكارهم المناصب الشرعية والدينية والعلمية بمدينة قفصة منذ نهاية القرن السادس عشر حتى القرن العشرين. وكان يطلق عليهم عرش "الفقهاء الأجرينين" تقديرا واحتراما لمكانتهم العلمية. لم تمكّن المصادر الأرشيفية من التعرف على أسماء الشيوخ الذين درّسوا بالمدرسة المرادية بقفصة منذ فترة التأسيس أي في الفترة المرادية. نسبت المدرسة المرادية إلى عائلة بالمفتي التي تمتلك دارا كبيرة من حيث المساحة ومن حيث التصميم المعماري تجاور المدرسة وتحديدا إلى فترة الجد سيدي محمّد بن عرفة وذلك منذ منتصف القرن الثامن عشر حسب رواية الأحفاد³⁹. وهي من بين أهمّ العائلات بمدينة قفصة

³⁴ لمزيد المعلومات انظر:

Ahmed Abdessellem, 1973, *Les historiens tunisiens des XVII^e et XVIII^e et XIX^e siècles*, Essai d'histoire culturelle, Tunis, p. 61

³⁵ الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 19-25-72.

³⁶ حمودة ابن عبد العزيز، 1970، ص. 204.

³⁷ وهي إجراءات شملت بالخصوص مدرسي الزيتونة ومن أهمّها إقرار مبدأ التساوي في الامتيازات بين العلماء الحنفيين والمالكيين سنة 1840 وادماج المدرسين ضمن موظفي الدولة وتخصيصهم رواتب قارة من بيت المال انطلاقا من سنة 1842. لمزيد التفاصيل انظر: ابن أبي الضياف، 1964-1963، إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج. 2، ص. 35-45.

³⁸ مصطفى التليلي، 2009، ص. 302.

³⁹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 16، ملف 4، وثيقة 1.



التي توارث أفرادها خطط التدريس بعد تعلمها القرآن والعلم الشريف برحاب المدرسة المرادية واضطلعوا بعد ذلك بالاعتناء بها وبخدمتها.

ومن بين أهمّ الشيوخ المدرّسين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتابعين إلى فرقة الأجرين نذكر:

- الفقيه محمّد بالعابدين، ينتسب الشيخ إلى فرع صديق وتحديدًا إلى أحمد صديق الأجرى القاضي في نهاية القرن السادس عشر/ بداية القرن السابع عشر⁴⁰. وهو شيخ مدينة قفصة في عهد حسين بن علي ومن أبرز علماء وفقهاء المدينة في الثلاثينات من القرن الثامن عشر⁴¹. ويشير حسين خوجة أنّه برع في علوم شتى حيث انتقل إلى مدينة تونس وأخذ عن مشائخها منهم الشيخ الخضراوي والشيخ الحركافي واستكمل على العلامة الشيخ محمّد زيتونة ورجع إلى مسقط رأسه وتصدّر التدريس بمدرسة محمّد باي المرادي بقفصة⁴². كما برز الفقيهان محمّد ومحمّد الناصر ابنا الشيخ محمّد بالعابدين المذكور في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر. سلّطت في عهد علي باي الثاني (1759-1782) خطايا ثقيلة على بعض مدرسي قفصة في سياق إجراءات تتعلق باختيارات السلطة واحتكار البايات لسلطة العزل والتعيين كالتدريس والقضاء والإفتاء لكسب مساندة الأعيان المحليين والأهالي ولضمان خضوعهم والتزامهم بمطالب الدولة وتدعيم سياسة المركزة. تجلّى ذلك من خلال ضرب نفوذ عائلة عابدين حيث فرض عثمان باش مملوك قايد قفصة سنة 1781 م على ابني عابدين: محمّد الناصر مبلغ 10000 دينار وعلى محمّد بن العابدين 3000 دينار وكذلك على محمّد بن أحمد الأجرى 2000 دينار⁴³ بينما تمتّع بقية المدرسين بامتيازاتهم القديمة.

- الفقيه أحمد بن علي بالمفتي⁴⁴، ينتسب إلى الجد المؤسس الفقيه عبد العظيم الأجرى وتحديدًا إلى فرع عرفة أو "العرافة" إلى عرفة بن محمّد بن عبد العظيم. ينتمي الشيخ المدرّس إلى عائلة بالمفتي (لقب يعكس الوظيفة التي تولّاها الأجداد) وهو حفيد المفتي محمّد بن علي الصغير⁴⁵. درس الشيخ أحمد بن علي بالمفتي بمدينة قفصة ثم بزواوية الشيخ مصطفى بن عزّوز بنفطة ثم ارتحل إلى الحاضرة ودرس الفقه على يد الشيخ علي العفيف إمام جامع الزيتونة⁴⁶. والتقى الشيخ أثناء أدائه مناسك الحجّ سنة 1875 بالعديد من العلماء المشاركة من الحجاز ومصر ومنهم عبد الغني الهندي وأحمد دحلان وأحمد الدهان وعليش وأخذ عنهم

⁴⁰ أحمد قاسم، 1982، ص. 312-313.

⁴¹ الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 19-25.

⁴² حسين خوجة، 1975، ص. 143.

⁴³ الدفتر عدد 1774. برز في بداية القرن الثامن عشر المدرّس محمّد بن أحمد الأجرى يقرئ الطلبة الفقه والنحو والتوحيد وغيرها من العلوم. وأكد حسين خوجة على المكانة المرموقة للفقيه محمّد بن أحمد من خلال أهميّة الطلبة المواطنين على دروسه في مقرّ سكناه. وهو ما حفّز الباي حسين بن علي على تدعيم المدرّس المذكور من خلال إفراده بـ 20 قفيزًا من الشعير و10 أمتار زيت وعدة رؤوس أغنام سنوية إعانة له على إطعام طلبة العلم. حسين خوجة، 1975، ص. 143.

⁴⁴ ولاحظنا ذلك من وثائق الأرشيف حيث تعاقب كل من الأخوين الحسين ومحمّد الجنيدي بن أحمد بن علي بالمفتي على خطّة التدريس بالمدرسة المذكورة. الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 38.

⁴⁵ يعدّ محمّد بن علي بالمفتي من بين أشهر مدرسي مدينة قفصة وخلفه في الخطّة خلال القرن التاسع عشر مدرسين مهمين وهما الابن محمّد وعلي. قام الفقيه المذكور سنة 1837 بتحبّيس جميع كتبه المتخصصة في الفقه والتفسير والنحو والبلاغة على أبنائه الذكور واشترط في صورة انقراضهم بتحبّيسها على مدرسة محمّد باي المرادي بقفصة. لمزيد التفاصيل انظر:

مصطفى التليلي، 2009، ص. 307-309.

⁴⁶ مصطفى التليلي، 2009، ص. 250.



إجازات⁴⁷. جمع الشيخ الفقيه المذكور بين خطط عديدة (مدرّس وباش مفتي وإمام الجامع الكبير) في الستينات من القرن التاسع عشر وكان يتقاضى من مداخيل الأحباس سنة 1867 عن التدريس ما جملته 50.25 ريال يوميًا⁴⁸ إضافة إلى مداخيل أخرى عن الخطط المذكورة آنفاً. وهو ما يؤكد حسن تموقع -ولو مؤقتاً- أعيان الأجربيين الذين نجحوا في البروز وتعزيز رصيد الوجاهة بحكم امتلاكهم رصيذاً علمياً في نطاق استراتيجية البحث عن النفوذ ودعمه مع السلطة المركزية التي تسمح بإسناد الخطط الوظيفية والرواتب والامتيازات الجبائية. هذا ونشير أنّ المشير محمّد الصادق باشا باي أمر سنة 1870 بتخصيص نصف ريال يوميًا من فاضل الربيع لإمام المدرسة⁴⁹ وثلاثة ريالات يوميًا⁵⁰ للشيخ أحمد بن علي بالمفتي⁵⁰ باش مفتي المدينة إغانة له على التدريس بالمدرسة والخطبة بقفصة⁵¹.

خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر بلغ عدد مدرّسي المدرسة خمسة لكل واحد منهم درسان في اليوم⁵². كما تذكر وثائق الأرشيف الوطني التونسي أسماء عدد من المدرسين ومن بينهم:

- أحمد بن القاضي المنتمي إلى العرافة وتحديدًا عائلة بالقاضي نسبة إلى القاضي أحمد بن عبد الرحمان حيث جعل ريال واحد يوميًا من ريع وقف المدرسة إغانة للشيخ المذكور بأمر من محمّد الصادق باشا باي سنة 1861⁵³.

- الفقيه أحمد السنوسي بن عبد الرحمان خنّوس، باش مفتي قفصة تولّى التدريس بالمدرسة على الأقل منذ سنة 1855⁵⁴. كان يتسلم سنة 1865 من وكيل أوقاف قفصة بإذن من محمّد الصادق باي مرتبًا على أساس 4.5 ريال يوميًا من مداخيل الأحباس مقابل أدائه خطة التدريس بالجامع والمدرسة⁵⁵. وأعفي من خطته المذكورة مع إبقاء وظيفتي التدريس وإمامة الجمعة بالجامع الكبير بقفصة سنة 1894⁵⁶.

- الناصر بن الفاسي الذي تولّى التدريس بالمدرسة على الأقل منذ سنة 1864.

أمّا عن الشيوخ المدرّسين بالمدرسة وأئمة مسجدها في الفترة المعاصرة وهم في معظمهم أحفاد مدرّسي المدرسة للفترة الحديثة، وتذكر وثائق الأرشيف تسميات بعضهم:

الشيخ بلقاسم بن يوسف بن القاضي خلال الفترة السابقة لشهر نوفمبر 1936، الشيخ الحسين بن أحمد بن علي بالمفتي الأجرى المسمّى منذ سنة 1910 إلى سنة 1951⁵⁷، محمّد الجنيدى

47 جريدة الصواب، 11 جانفي 1907.

48 مصطفى التليلي، 2009، ص. 302.

49 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 16، ملف 32، وثيقة 11 و 16.

50 توفي الشيخ المذكور بالحاضرة في غرة جانفي 1907 ودفن بإحدى مقابرها بعد مرض لازمه.

51 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 47، ملف 3، وثيقة 11.

52 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 90.

53 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 47، ملف 3، وثيقة 9.

54 ذكرت وثائق الأرشيف وتحديدًا أمر علي مؤرخ بسنة 1293 هـ/ 1876 م الترفيع في مرتب الشيخ المذكور من 54 ريال إلى 180 ريال في العام ومثله مرتب الإمام الذي ارتفع من 24 ريال إلى 180 ريال سنويًا. الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 112.

55 مصطفى التليلي، 2009، ص. 302.

56 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "ب"، صندوق 11، ملف 1، وثيقة 55.

57 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 47، ملف 15، وثيقة 10.



بالمفتي درّس منذ أفريل 1952⁵⁸ والشيخ محمّد بن محمّد الصالح بن عمر الراشدي بتاريخ جوان 1952⁵⁹. كما تشير الوثائق الأرشيفية إلى أسماء ناظر المدرسة المكلف بالنظر في شؤون التلامذة من تأديب ومراقبة وفي وشعائر المدرسة منهم الشيخ القاضي محمد الطيّب بن مصباح سنة 1933⁶⁰ وعلي بن الخوجة سنة 1934⁶¹.

4.2. تخطيط المدرسة وعمارته

اعتمدنا في الوصف المعماري للمعلم على رسم حبس مدرسة قفصة وعلى وثائق الأرشيف التونسي⁶² وعلى عدد من الصور الفوتوغرافية التي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين باعتبار أنّ المدرسة مندثرة حاليًا. يتشابه مخطط هذه المدرسة مع غيرها من المدارس المرادية بالحاضرة وبالمدن الداخلية⁶³، حيث نجد بها صحنًا مركزيًا مبلطًا تحيط به الأروقة وتتوزّع حوله غرف الطلبة من الجهات الأربع ومسجد للصلاة والتدريس من الجهة القبليّة.



صورة 2. منظر عام للمدرسة. المصدر: بطاقة بريدية سنة 1906.

يتخذ المعلم شكلًا مستطيلًا بين القبلة والجوف ويتمّ الولوج إلى داخله عبر مدخلين حسب الرواية الشفوية: مدخل ثانوي بالجهة الغربية ومدخل شرقي رئيسي كبير والذي كان يصعد إليه بواسطة درجات له باب خشبي كبير الحجم ذو مصراعين يوصل إلى صحن مكشوف يوجد بالجهة الجوفية للمعلم وهو مبلط ومربع الشكل (14م × 14م)⁶⁴. يتكوّن كل رواق من

⁵⁸ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 47، ملف 15، وثيقة 16.

⁵⁹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 16، ملف 32، وثيقة 2.

⁶⁰ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 15.

⁶¹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 47، ملف 15، وثيقة 9.

⁶² الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.

⁶³ وخاصة مدارس مدن قابس والكاف وتوزر.

⁶⁴ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.



بائكة تشكلها أربعة عقود متجاوزة مقامة على أعمدة اسطوانية تعلوها تيجان حفصية صنعت محليًا خلال القرن السابع عشر من طرف حرفيين غير مختصين وتيجان كورنثية معادة الاستعمال. تحيط بالصحن والأروقة من الجهات الأربع عشرون غرفة مخصصة لسكنى الطلبة القادمين من القرى والقبائل المجاورة، أبعاد الواحدة (6 م × 3 م)⁶⁵. وكانت تفتح الغرف حسب الرواية الشفوية ومن خلال الصور الفوتوغرافية عبر مداخل مستطيلة الشكل تعلوها نوافذ مربعة متوسطة الحجم للتهوئة والإضاءة لها نفس المقاسات كما تشترك في طريقة التسقيف الذي اعتمد فيه على الأقبية المتقاطعة.

أما المسجد فيوجد في الجهة القبالية للمعلم ويأخذ شكلًا مربعًا وسقفه مقام على أعمدة منحوتة من حجر الكذال⁶⁶ تعلوها تيجان من النوع الحفصي وتغطي منطقة المحراب - من خلال الصور الفوتوغرافية - قبة نصف دائرية.

ونبتين من مساحة ومقاسات العناصر المعمارية وبقايا الجدار القبلي للمسجد المكون من ثلاثة أقواس متجاوزة صماء أن مخطط المسجد يتألف من ثلاثة بلاطات طولية وثلاثة بلاطات عرضية تغطيها أقبية متقاطعة ترتكز على أعمدة اسطوانية في الوسط وعلى أعمدة رافدة متلاصقة مع الجدران. ولم يتبق من المسجد المذكور سوى محراب هو ذاته مطموس يكونه عقد نصف دائري متجاوز ويصل عرضه 1.17 م أما عمقه 1 م.

ومن مكونات المدرسة أيضا كتاب مخصص للتدريس ولتوفير التكوين اللازم للطلبة يمكنهم من الالتحاق بالجامع الكبير. تمتد قاعة الكتاب بالجهة القبالية وتجاور المسجد من الجهة الغربية، أبعادها (10 م × 9 م) ولها نوافذ رفيعة. تشير وثائق الأحباس أن المدرسة كانت مركزا لبث العلوم واستقطاب الطلبة من خلال تقديمها لدروس عديدة وقراءة الحزب⁶⁷. وكانت المدرسة تشتمل أيضا على مiazza ذات بئر وقاعة طبخ و3 مراحيض⁶⁸.

نلاحظ في مثال للمدرسة المرادية بقفصة غياب الزخرفة سواء على مستوى الجدران أو المكونات المعمارية وخاصة غياب نقيشة تؤرخ لتأسيس المعلم سوى اعتناء بالمدخل الرئيسي من خلال احتوائه على مدرج باعتباره معلمًا رسميًا⁶⁹ إضافة إلى وجود زخرفة هندسية بسيطة تتمثل في أطر ناتئة جبسية تحف بالمحراب وبالباب الشرقي الخارجي للمدرسة. يفسر غياب الزخرفة بالطابع المحلي لمدينة واحية ومتوسطة خلال الفترة الحديثة حيث اتسمت عمارتها بالبساطة والتشّش من خلال المحافظة على التقاليد المعمارية المحلية السابقة للعهد العثماني سواء من خلال الأنماط الهندسية أو الأساليب الزخرفية أو تقنيات البناء المحلية.

⁶⁵ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.

⁶⁶ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.

⁶⁷ أرشيف أملاك الدولة، صندوق 379، إصلاح أوقاف قفصة، وثيقة مؤرخة بسنة 1874.

⁶⁸ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85.

⁶⁹ وعنصر المدرج نجده كذلك في مدرستي الكاف وقابس المنسوبتان إلى محمد باي المرادي.



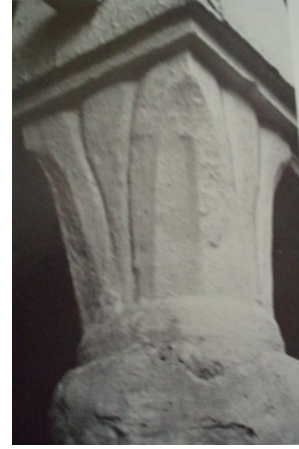
صورة 4. مدخل المدرسة.



صورة 3. الصحن وأروقة المدرسة.



صورة 6. الواجهة القبيلة المتبقية من المدرسة.



صورة 5. تاج حفي.

المصدر: صورة 3، 4، 5، 6 (مخبر صور المعهد الوطني للتراث)، صورة 6 (صاحب المقال).

3. أوقاف المدرسة

كان للمعلم أهمية كبيرة وهو ما تؤكدُه الأحباس المتعدّدة والموقوفة عليها. ورد في رسم التحبّيس تعداد أحباس المدرسة "أنشأ أبو عبد الله محمد باي مدرسة شرقية الباب بمدينة قفصة من أعمال الجريد وحبّس عليها رباعا وعقارا استقرت على ملكه"⁷⁰. وهي أحباس معتبرة وكافية لصيانة المدرسة وتعهّدها ولدفع مرتبات القائمين عليها وطلبتها.

وتنقسم الأوقاف إلى صنفين:

- الرباعات وتتمثل في البناءات المعدّة للسكني، يمثلها الحبس فقط في جميع الدار الكائنة داخل بلد قفصة "شق الدنجاله"⁷¹ تجاور دار الدّاموسي وتعرف بـ "دار المرابط نصيرة العبدلي". وبمكانها هذا تعتبر الدار قريبة ومجاورة للمدرسة ونعتقد أنّ شراءها وضمّها للحبس المذكور كان بهدف سكنى موظفي المدرسة.

⁷⁰ الدفتر عدد 1 مكرر (دفتر أوقاف المراديين)، ص. 100.

⁷¹ ويقصد بـ "شق الدنجاله" الحومة الواقعة بقسم "قبلي قفصة" تحدّها من الشرق حومة البلدية ومن الغرب حومة المرادية.



- العقارات وتتمثل في أوقاف فلاحية ذات صبغة اقتصادية (كراء ومغارسة ومساقاة وإنزال ومعاوضة) وتتنحصر عموما في الجنان والأراضي والبساتين ومنابتها من الماء وهي التالية:

جدول 1. قائمة أحباس المدرسة المرادية بقفصة.

العقارات المحبسة على مدرسة الباى بقفصة
- جميع الجنان الكبير بغابة قفصة.
- جميع كامل جنة ⁷² الشعراى بالمكان.
- جميع الأربعة عشر قيراطا ⁷³ برقة ابن مسكين بالمكان.
- جميع الأربعة عشر قيراطا بجنة أبى شينة الخارج بالمكان.
- جميع ثلثى داير ⁷⁴ بن عبد الحميد بالمكان.
- جميع الثلثين من جهة الحجام بمحلة الداخل بالمكان.
- جميع الأربعة عشر قيراطا بجنة أبى شينة بالمكان.
- جميع رقعة ⁷⁵ بن سهيل بمحلة تايبلا بالمكان.
- جميع رقعة الشيخ بمحلة لاغش بالمكان.
- جميع رقعة الماء بالمكان ⁷⁶ .
- جميع جنة أبى الدارب الفوقانى بالمكان.
- جميع جنة أبى الدارب اللوطانى بالمكان.
- جميع الطريدة ⁷⁷ بياضا ببرج برجوه بالمكان.
- جميع السبع قراريط بوقف الشامى بجهة الخارج بالمكان.
- جميع رقعة علالة بمحلة الخارج بالمكان.
- جميع الثلاثة الأرباع على الشياخ من جميع الجنة بغابة قفصة بجهة الخارج بمحلة لاغش وتشهر بـ "الحاج على".
- جميع جنة بوسلامة بغابة قفصة مع ثلاثة أرباع ماء للجنة المذكورة من عين محلتها.
- جميع الجنة الكائنة بغابة قفصة بجهة الداخل وتشهر بـ "رقابع محمود السرارى" مع فردة ماء ونصف الفردة من عين المطوية الكبيرة.
- جميع الثلاثة أرباع على الشياخ من جميع الجنة الكائنة بغابة قفصة وتشهر بـ "جنة أبو شرا بن غربال" بما لها من الماء المعلوم بمحلتها.
- جميع الربع الواحد على الشياخ من جميع الجنة بغابة المدينة وتشهر في القديم بكحلان بورماد وبعده بالحاج على.

⁷² الجنة أو الجنان هي تسمية لها مدلولاً دينياً لاحتوائها على النخيل والأشجار المثمرة بحيث تكون شديدة الخضار. ولمزيد التدقيق في تسميات الملكية العقارية الواحية بمدينة قفصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر انظر: خالد عائدة، 2008، ص. 19-51.

⁷³ يساوي القيراط 1/24 من الملكية.

⁷⁴ "الداير" هو فضاء مغروس تتوزع به الأشجار على مستوي الطول والعرض على شكل صفوف متباعدة ومتشابهة.

⁷⁵ أو "الرقابع" وهي موقع صغير الحجم ومحدود الغراسات.

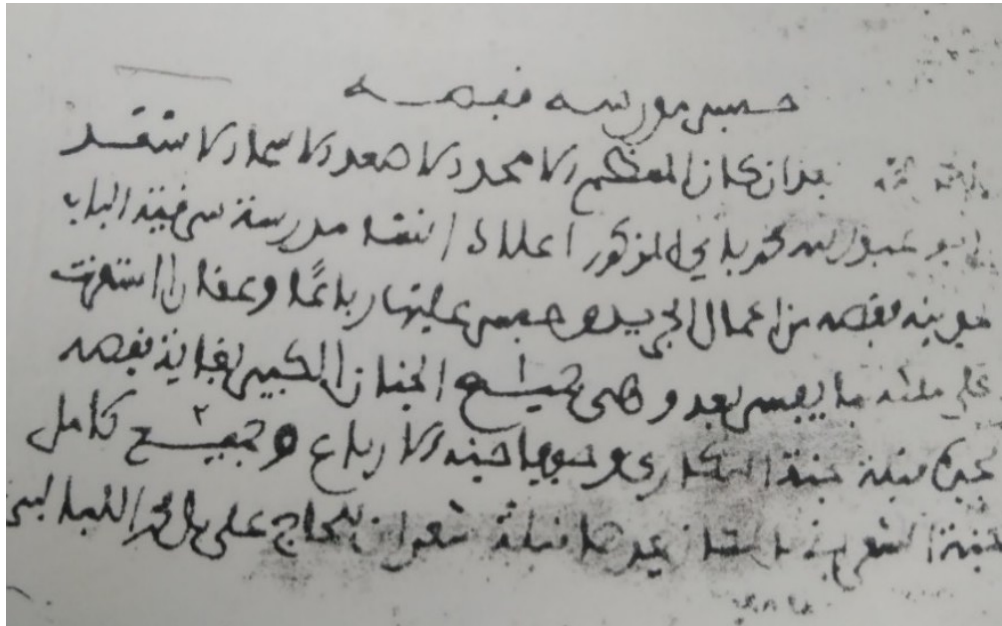
⁷⁶ وتضم 59 نخلة. الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 1731.

⁷⁷ الطريدة هي الفضاء الفارغ والمتروك بين صفوف الأشجار في "الداير" ويستغل عادة في زراعة الحبوب والخضر كما يضم عددا من النخيل.



- جميع الجنة الكائنة بغابة مدينة قفصة وتشهر بـ "جنة ربع المحايطة" بما لها من الماء المعلوم.
- جميع الجنة الكائنة بالغابة المعروفة في القديم بـ "أولاد عبد الله بن حسين" وتشهر بـ "جنة جنان الرمل" مع ما لها من الماء من عين ماء خليفي.
- جميع الجنة بغابة المدينة المذكورة بجهة الخارج منها وبمحلة ماء خليفي وتشهر بـ "جنة مدينين" مع مالها من الماء المعلوم من عين محلتها.
- جميع الثلث الواحد على الشياح من الجنان المشجر بأنواع الشجر من المحل المعروف بـ "لاقوش" خارج بلد قفصة وتعرف أيضا بـ "الأبراج".
- جميع جنة برج القبّي بالمكان.
- جميع جنة حباسة بالمكان.
- جميع الأربع فردات ماء ويعبر عنها بـ "الواجبات" من ماء لالة.

ونلاحظ من خلال قائمة الأوقاف انحصارها في العقارات الفلاحية وهي جنان قريبة من منابع المياه وفي أغلبها من أصول الزيتون والتمور. وهو ما يعكس من جهة أنّ الجنان هي أهم ملكية في المجالات الواحية⁷⁸ وأنّ اقتصاد المنطقة قائم أساسا على المجال الفلاحي الذي يمثل المصدر الرئيسي للثروة في هذه المنطقة.



صورة 7. حبس المدرسة المرادية بقفصة، المؤرخ بأواخر جمادى الأخرى عام 1104 هـ/ 7 مارس 1693 م. المصدر: الدفتر عدد 1 مكرر، دفتر أوقاف المراديين.

⁷⁸ وينطبق ذلك على مدينة توزر فأحياس المدرسة المرادية بها في أغلبها بساتين. انظر: ذاكر سيله، 2016، ص. 4-2.



4. الشعائر الدينية ووجوه استعمال الوقف وأهدافه

عدّد المحبّس من خلال الوقفية إضافة إلى الطلبة الأشخاص التابعين للمنشأة التعليمية واشترط ضرورة صرف ما يتحصّل عليه من بيع غلة العقار المذكور في إقامة شعائرها. ولضمان تسيير مؤسسة المدرسة حدّد المحبّس بالتدقيق مستحقات كل المنتفعين مقابل ما يقومون به من وظائف وهي التالية:

جدول 2. المهن المرتبطة بمدرسة الباي بقفصة والأجرة الشهرية.

العدد	المهنة	ريال
1	مؤدّب المدرسة	2 و $\frac{1}{2}$
1	مدرّس المدرسة	3 و $\frac{1}{2}$
1	إمام المسجد	2
1	مؤذن المسجد	1
1	نقيب المدرسة	1
1	ناظر أحباس المدرسة	2
20	طالب قاطن بالمدرسة	20

عدّد المحبّس بالتدقيق الموظفين بالمدرسة: المؤدّب والمدرّس واللذان يتقاضيان أعلى الرواتب الشهرية، إمام المسجد والمؤذن والنقيب وناظر الأحباس والطلبة وحدّد عددهم وهو 20 طالبا على عدد البيوت المخصّصة لهم بالمدرسة⁷⁹. وقد أكّد عقد التحبّس على تقديم أهل كل مرتبة على المرتبة التي تليها إذا ضاقت غلة الحبس وإن بقيت من غلة حبس المرتبة السابقة تقسّم على المراتب التي تليها على قدر أنصبتهم. كما أكّد عقد التحبّس عدم جمع أهل الحبس بين وظيفتين من وظائف المدرسة ومن غاب من أهل الحبس وأقام مكانه نائب كان مناب المنوّب عنه من المرتب للنائب. وحرص المحبّس أن يبقى الحبس داخل العائلة وببيد القائمين بالمدرسة حيث أوصى بإرث حبسه بعد موته إلى ورثته وهم الأبناء الذكور واشترط أن يكون النظر للأكبر ولا يكون النظر للأصغر إلا إذا كان هو الأصلح. وأرجع المحبّس حبسه في صورة انقراض أولاده إلى أحفاده بالشرط المذكور وإن انقرض العقب إلى إمام المسجد والمؤذن وفي صورة اختلافهما يكون الرأي للأصلح منهما. وتنبّه من خلال ما تقدّم الاهتمام الكبير للمؤسس محمّد باي المرادي بمدرسة قفصة بتخصيصه أحباس معتبرة للمعلم المذكور والتي ضمنت بمداخلها القارة حسن إدارة هذه المؤسسة التربوية من خلال التكلّف بأعمال البناء والترميم وخلص رواتب القائمين عليها.

يساهم الوقف إضافة إلى دوره الاقتصادي والتعليمي في تهيئة المجال والتوسع المعماري للمدينة حيث أكّد المحبّس على ناظر أحباس المدرسة أولاً على صيانة وترميم وبناء المدرسة حتى تبقى قائمة على أصولها ومنتفعا بها. واشترط في صورة حصول فائض في الربيع على إصلاح ما يحتاجه مسجد المدرسة من رّم وبناء وتحصير واستصباح واشتراء جنة يلحق كراء

⁷⁹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 55، ملف 6، وثيقة 85. ومنذ سنة 1910 تقلّص عدد الطلبة إلى خمسة عشرة طالبا يتقاضون جراية قدرها 15 فرنكات في الشهر، الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 47، ملف 15، وثيقة 10.



ربيعها بالحبس المذكور. ويتجلى الدور التعميري للوقف من خلال عمليات البناء والرّم وكذلك من خلال الاهتمام بالبنية التحتية بإصلاح مجاري الماء والتنقية وإقامة التخوم والحرث وغير ذلك من الضروريات وهو ما يؤكد على أن المجال الفلاحي أساسي ومورد رئيسي للوقف.

ركزت وثيقة حبس المدرسة على إبراز أهداف التحبّيس المذكورة وأدواره الخيرية والدينية العامة. ويظهر أنّ الجانب العمراني وتشكّل المدينة وصيانة معالمها وتهيئة المجال بمدينة متوسطة لم تكن من أوليات واستراتيجيات البايات المراديين بل المقصد من تأسيس هذه المؤسسة بدواخل البلاد كان أداة من أدوات السلطة المركزية للسيطرة على التعليم بإعطائه صبغة رسمية ومزيد إحكام واحتواء المناطق البعيدة والطرفية للإيالة التونسية. ويعلّل اهتمام العثمانيين بمدينة قفصة لأهميتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والجباية⁸⁰ وهي سياسة واصلها الحسينيون لخدمة السلطة المركزية من خلال الاعتماد على الأعيان المحليين في الخطط الإدارية وفي المناصب الهامة في النظام المخزني وفي استغلال موارد البلاد. وقاموا بترميم وبناء عددا المؤسسات الدينية والتربوية وتقديم امتيازات للمشرفين عليها وفي هذا الإطار قام حسين بن علي في بداية القرن الثامن عشر بتفقد المدرسة المرادية والنظر في أوقافها وإعانة طلبتها⁸¹ وسمّيت المدرسة خلال هذا العهد بـ "المدرسة الحسينية".

الخاتمة

تختزل مدرسة الباي بقفصة باعتبارها معلما دينيا-تعليميا ذاكرة المجموعة والبيئة الثقافية المحلية فهي ليست مجرد بناية فقط، بل شاهدا على تاريخ المدينة ومعالمها أثناء العهد العثماني وعلى تاريخ المجتمع العلمي والديني من خلال نشر العلوم الإسلامية واستقبال الطلبة وإيواءهم وهو ما أهلها إلى البروز من جديد في النصف الأول من القرن الثامن عشر بانتداب كفاءات علمية للتدريس وتلبية احتياجات الدولة من الأطارات الدينية والقضائية والإدارية.

وبالرغم من اندثار المدرسة المذكورة وفقدانها لوظيفتها فقد مكنتنا وثائق الأرشيف وخاصة رسوم الأحباس أهم مصدر اعتمدها في دراسة المعلم من التعرف على مكوناته المعمارية، على أحباسه ووجوه استعمال وكيفية صرف الربيع وكيفية تسييره. مثّلت المدرسة المرادية من بين أوائل المعالم الدينية-التعليمية الرسمية التي بنيت بمدينة قفصة وبجهة الجريد في العهد العثماني وقد اختطت بموقع استراتيجي بقسم "قبلي قفصة" النواة الأولى للمدينة. ضمّ المعلم كل مكونات وظيفة المدرسة من مسجد، صحن تحيط به أروقة وعشرون غرفة خصّصت لإيواء الطلبة وكتّاب وميضاة.

تعدّ "مدرسة الباي" بقفصة من أبرز هذه المؤسسات الرسمية والتي تعود إلى نهاية القرن السابع عشر حيث شيدت في ظرفية تميّزت باستتباب الأمن وفي إطار سياسة عمرانية وتعليمية انتهجها البايات المراديون ثم من بعدهم الحسينيون وهي المرتكزة على بناء مراكز ذات إشعاع ثقافي بمختلف الجهات الداخلية وخاصة منها المدن ذات الأهمية العسكرية الاستراتيجية

⁸⁰ بخصوص موضوع الجباية خلال القرن السابع عشر - القرن التاسع عشر، انظر: مصطفى التليلي، 2009، ص. 419-452.

Brahim Saadaoui, 2004, p. 245-281.

⁸¹ حسين خوجة، 1975، ص. 142.



والاقتصادية مثل مدينة قفصة. وبالنظر في ظروف وملابسات تأسيس هذا الصنف من المنشآت التعليمية الرسمية، فقد مثلت آلية من آليات سيطرة السلطة المركزية على اقتصاد المنطقة وتدعيم نفوذها بالمناطق الداخلية والبعيدة من خلال التحالف مع القوى المتحكمة فيها. وهو ما يؤكد ضعف وغياب المشروع التعميري للسلطة العثمانية بالمدينة على امتداد ثلاثة قرون حيث اقتصر مجهودها على بناء وترميم عدد محدود من المنشآت والتي لم تكن شديدة التأثير بأنماط العمارة العثمانية بل حافظت على التقاليد والأنماط المحلية ما قبل العثمانية وفي مقابل ذلك برز المجهود الكبير للعناصر المحلية في تأسيس أغلب منشآت المدينة وجهتها في الفترة الحديثة.

المصادر والمراجع

المصادر الأرشيفية

الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 1 مكرر (دفتر أوقاف المراديين)، الدفتر عدد 3992، نسخ لحجج تحبيس أملاك على المساجد والمدارس بتونس وخارجها.
الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 21، ملف 237.
الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "د"، صندوق 16، ملف 3 و4. صندوق 47، ملف 3 و15. صندوق 55، ملف 6. صندوق 64، ملف 1.
الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة "ب"، صندوق 11، ملف 1.
أرشيف أملاك الدولة والشؤون العقارية، صندوق 379، إصلاح أوقاف قفصة.

المصادر والمراجع باللغة العربية

ابن أبي دينار أبي عبد الله محمد، 1967، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، المكتبة العتيقة، تونس.
ابن أبي الضياف أحمد، 1990، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار التونسية للنشر، 8 أجزاء، تونس.
ابن أبي لحية المنتصر، 1998، **نور الأرماس في مناقب القشاش**، دراسة وتحقيق لطفي عيسى وحسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس.
ابن عبد العزيز حمودة، 1970، **الكتاب الباشي**، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس.
ابن يوسف محمد الصغير، 1998، **المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي**، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي، مجلد 1، 1998.
بن يوسف، زهير، 2018، «جامع الباي بمدينة باجة ومدرسته: دراسة تاريخية»، في **مجلة الكراسات التونسية**، العددان 214-215، ص. 43-80.
بن مامي محمد الباجي، 2006، **مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني**، تونس.



التايب المنصف، 1998، «المجال والسلطة في البلاد التونسية خلال العهد العثماني»، في مجلة روافد، عدد 4، ص. 7-42.

التليلي مصطفى، 2009، قفصة والقرى الواحية المجاورة: حول الحياة الجماعية (من بداية القرن الثامن عشر إلى 1881)، جمعية صيانة مدينة قفصة، تونس.

جابر ليلى، 2009، «المدرسة المرادية بقابس»، في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، عدد 39، ص. 75-97.

خالد عائدة، 2008، الملكية الواحية والحراك الاقتصادي والاجتماعي بالفضاء المدني القفصي (1852-1881)، شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تحت إشراف أ. أحمد الجدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة.

خوجة حسين، 1975، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر العموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس.

السعداوي أحمد، 2011، تونس في القرن السابع عشر: وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس.

السعداوي أحمد 2015، تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا (1705-1756) ووثائق أوقاف من العهد الحسيني، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس.

سيله زاكر، 2013، المعمار والتعمير ببلاد الجريد من القرن السادس عشر إلى القرن 19، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التراث، تحت إشراف أ. ناجي جلول، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.

سيله زاكر، 2016، «ملاحظات حول مدينة توزر وواحتها في نهاية القرن السابع عشر من خلال وقفية المدرسة المرادية» في السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية [نسخة الكترونية]، عدد 1.

الرباط: <http://www.al-sabil.tn/?p=2095>

الشيبياني بنبليث، 2003، فصول في تاريخ الأوقاف، مكتبة علاء الدين صفافس، تونس.

لسود توفيق، 2007، مدينة قفصة في العهد العثماني: دراسة حضرية ومعمارية، شهادة الماجستير، اختصاص علم آثار وفنون إسلامية، تحت إشراف أ. أحمد السعداوي، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس.

هنية عبد الحميد، 2012، تونس العثمانية بناء الدولة والمجال من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، منشورات تير الزمان، تونس.

الوزير السراج محمد الأندلسي، 1985، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، دار الغرب الإسلامي، 3 أجزاء، بيروت.

قاسم أحمد، 1982، أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عظوم، شهادة التعمق في البحث، تحت إشراف أ. عبد الجليل التميمي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.



BRUNSCHVIG Robert, 1931, « Quelques remarques historiques sur les *médersas* de Tunisie », in *Revue Tunisienne*, n° 6, p. 261-285.

DU PATY DE CLAM Antoine, 1894, *Fastes chronologiques de la ville de Gafsa*, Paris.

HENIA Abdelhamid, 1980, *Le Ğrid ; ses rapports avec le Beylik de Tunis (1676-1840)*, Publication de l'Université de Tunis, Tunis.

LASSOUAD Taoufik, 2021, *L'urbanisme et l'architecture de la médina de Gafsa et de ses environs à l'époque ottomane*, Thèse de doctorat, spécialité Histoire, archéologie et patrimoine, sous la direction de Mr. Ahmed Saadaoui, la faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis.

PIGNON Jean, 1961, « Un document inédit sur la Tunisie au début du XVII^e siècle », in *Cahiers de Tunisie*, n°33-34-35, p. 109-219.

POINSSOT Louis, 1971, « Quelques édifices tunisiens du moyen âge et des temps modernes », in *Cahiers de Tunisie*, n° 75-76, p. 111-222.

SAADAOUI Ahmed, 2001, *Tunis, ville ottomane : trois siècles d'urbanisme et d'architecture*, Centre de Publication Universitaire, Tunis.

SAADAOUI Ahmed, 2010, *Tunis, architecture et art funéraires : sépultures des deys et des beys de Tunis de la période ottomane*, CPU, Tunis.

SAADAOUI Brahim, 2004, « La fiscalité dans le caïdat de Gafsa à la fin du XVII^e siècle », in *Arab Historical Review for Ottoman Studies*, Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique, n° 29, p. 245-281.